عمارة يعقوبيان الرؤية والتشكيل

الدكتور عوني صبحي الفاعوري*

الملخص

هدف هذا البحث إلى دراسة رواية "**عمارة يعقوبيان**" للكاتب علاء الأسواني من حيث التشكيل الفني والرؤية التي أراد الكاتب أن يقدَّمها عن عالم وسط القاهرة الذي يعكس صورة المجتمع المصري بعامة. فقد قدَّم الكاتب رواية واقعية "**عمارة يعقوبيان**" الموجودة فعلاً في شارع سليمان باشا في وسط القاهرة، وقد كشف الكاتب من خلال شخصيات الرواية عن الحراك السياسي والاقتصادي والاجتماعي داخل المجتمع المصري، وبيّن مواطن الفساد والخراب والخلل التي تصيب مفاصل هذه الحياة، وكشف الكاتب- بجرأة كبيرة- عن تابوات الجنس والفساد والرشوة والابتزاز والتطرف الديني بلغة جميلة مباشرة وبتسجيلية واقعية. وخلصت الدراسة إلى أن الكاتب الأسواني قدَّم روايته بتقنية فنية عالية أعادنا فيها من جديد إلى تيار الواقعية التسجيلية الذي تراجع كثيراً في ظل سيطرة تيار الحداثة وما بعد الحداثة، وقدَّم الكاتب عبر البنية السردية عدداً كبيراً من الشخوص في المكان والزمان المحددين يمثلون طبقات الشعب كافة، المهمشين الفقراء والأغنياء الجدد، الذين نشأوا وكبروا على أنقاض الآخرين من الفقراء المسحوقين ومصالح الوطن.

* قسم الدراسات العليا- المعهد الدولي لتعليم اللغة العربية- الجامعة الأردنية

مقدَّمة:

تقع رواية "**عمارة يعقوبيان**" للكاتب علاء الأسواني في (248) صفحة من القطع المتوسط، وقد صدرت عام 2002م، ثم أُعيدت طباعتها تسع مرات، وترجمت إلى أكثر من ثماني لغات عالمية، وهذا -دون شك- دليل واضح على مدى نجاح الكاتب في تقديم روايته على الرغم من أنها الرواية الأولى له.

"**عمارة يعقوبيان**" مكان حقيقي لعمارة موجودة في شارع طلعت حرب وسط مدينة القاهرة، وقد بناها عميد الجالية الأرمنية هاكوب يعقوبيان عام 1934م على نمط معماري أوروبي، زينها بالتماثيل الإغريقية لتكون سكناً للطبقة الأرستقراطية من الأجانب الذي يسكنون وسط القاهرة حيث كانت أرقى الأحياء آنذاك، وقد بنى أيضاً خمسين غرفة صغيرة حديدية على سطح العمارة بعدد الشقق الموجودة في العشرة الطوابق التي تكوّن جسم العمارة. وبعد ثورة يوليو 1952 هاجر كثير من الأجانب من القاهرة، واستولى على العمارة طبقة من الأغنياء المصريين وكبار التجار وضباط الجيش ليشكلوا مجتمعاً أرستقراطياً بديلاً عن الناس الذين رحلوا، فيما تحولت الغرف الحديدية على سطح العمارة إلى غرف للخدم وتخزين مواد التموين. وبعد أن امتدت القاهرة إلى ضواحٍ جديدة سكن العمارة طبقة جديدة من الناس، واحتل سطح العمارة عامة الناس من المهنيين وأرباب الصناعة والحرف وصغار الموظفين، ولذلك تكون في العمارة مجتمعان؛ مجتمع أرستقراطي سكن الشقق الكبيرة الواسعة من أصحاب رؤوس الأموال والتجار وكبار ضباط الجيش، ومجتمع فقير سكن سطح العمارة، وربط الكاتب عبر تناغم واضح بين هذين المجتمعين ليعكسا صورة القاهرة بكل ما فيها من تناقضات وأزمات، فلكل قصته، ولكل همومه ومشكلاته عبر شبكة علاقات وشخصيات غاية في التنوع والتعدد في الرؤى والميول والأهداف تعكس خصوصية وسط القاهرة وتعطيها طابعاً محلياً، فكما قال الروائي عبدالرحمن منيف "**ازدادت روايتنا محلية، كلما أصبحت عالمية، بمعنى آخر كلما كانت أقرب إلى الصدق في**

تصوير الجو المحلي.. أصبحت أقرب إلى العالمية"[1]. ولذلك فقد جاءت روايات نجيب محفوظ لتبعث الحياة في الأحياء الشعبية في مدينة القاهرة، وتراك تعيش الأجواء القاهرية والأشخاص وهم يسيرون أمام ناظريك وأنت تلج عالم نجيب محفوظ. وهذا يؤكد مقولة عبدالرحمن منيف إذ غدت أعمال محفوظ عالمية، وتراها واضحة في الأدب العالمي وفي مختلف لغات الشعوب؛ فرواية محفوظ "**الثلاثية**" و "**حب تحت المطر**" و "**الحرافيش**" مثلاً عاينت الطبقة البرجوازية في مصر، ولكنها ليست منقطعة عن روايات ديكنز وتولستوي وغوركي وغيرهم.

ومن هنا، جاءت رواية "**عمارة يعقوبيان**" لتسلط الضوء على وسط مدينة القاهرة بكل ما فيها، وتأخذك إلى عالم يعج بالحقيقة، وكأنك تشاهد فيلماً سينمائياً واقعياً، ولعل هذا هو سرّ نجاحها وسر الاهتمام بها وترجمتها إلى أكثر من ثماني لغات عالمية كالفرنسية والإنجليزية والإسبانية والإيطالية والنرويجية والألمانية والروسية، كما يجري ترجمتها إلى لغات أخرى[2].

تكمن أهمية هذه الرواية بأنها تكتب وفق تيار الواقعية التسجيلية التي بدأت بالتقهقر في مواجهة التيارات الحداثوية التي تبحث في الذات وتغور في الأسطرة وعلم النفس والأحلام والكوابيس وغيرها، واستطاع الكاتب أن يقدَّم عملاً إبداعياً بعيداً عن عين الرقابة أو خوفه منها سواء رقابة السلطة أو رقابة المجتمع، ذلك أن العديد من الأعمال منعت أو صُودرت مثل رواية "الرواية" لنوال السعداوي أو رواية حيدر حيدر (وليمة لأعشاب البحر) أو غيرها علماً بأن رواية "**عمارة يعقوبيان**" تحمل في طياتها تعاملاً مع قضايا لم يألفها القارئ العربي مثل قضايا الجنس المثلي،" فإذا كانت الرواية

([1]) عبد الرحمن منيف، مجلة المعرفة، شباط، 1979.

([2]) كمال الأسواني، عمارة يعقوبيان، مقدَّمة الطبعة الثالثة، ص 7.

الحديثة التي لا قواعد لها ولا وازع، مفتوحة على كل الممكنات وغير محددة"[3]، فإن الإبداع التقليدي أو الواقعي يعتمد محورية معينة في بنيته الروائية، وهذا ما قامت عليه هذه الرواية، محورية الأحداث، إذ نجدها تتشابك لتضيء في النهاية جوانب المكان وتكشف نهايات شخوصه ورؤاهم.

لقد كشف الكاتب المستور بجرأة وتفاصيل دقيقة على لسان أبطاله وتعمق في قضايا كثيرة تكبر وتصغر بحسب الشخصية التي تُقدَّم بها، فثمة إدانات كثيرة تقدَّم من خلالها للواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي بعد كل التحولات التي أصابت المجتمع المصري منذ ثورة 1952، والتحولات الاقتصادية والانفتاح في السبعينيات، وقبيل حرب الخليج الثانية 2002، فقد حصلت خلخلات اجتماعية كبرى في المجتمع، وأصاب التحول مناحي الحياة بشكل كبير، وتغيّرت منظومة المفاهيم والقيم، وأصبحت قوة السلطة مفرطة في التعامل مع الناس وقمعهم وتعذيبهم وقتلهم أحياناً.

ثيمة الرواية:

تتضمن "**عمارة يعقوبيان**" في مجملها أربع قصص ينتقل الكاتب من قصة إلى قصة أخرى و"نحن نلمس أن عنصر التشويق موجود من أول صفحة ولا ينتهي إلا بانتهاء الرواية، بل ولا ينتهي حتى بانتهائها، وأحياناً نراه يترك بعض القصص مفتوحة حتى يجعل القارئ مشدوداً ودائم التفكير فيها" [4]. فهذه القصص الأربع مرتبطة بشبكة علاقات يديرها الراوي- الكاتب- بتقنية عالية وهذه القصص هي:

- قصة زكي بك الدسوقي بطل الرواية والخيط الذي يربط أجزاء الرواية كلّها، وأخته دولت.

([3]) روبير مات، رواية الأصول وأصول الرواية، ترجمة وجيه سعد، ص64.

([4]) جلال أمين، عمارة يعقوبيان، رواية جديدة بديعة، مجلة الهلال، العدد 47، القاهرة، 2002.

- قصة طه الشاذلي- ابن البواب- وخطيبته بثينة السيد، وكلاهما يسكن سطح العمارة.
- قصة الصحفي المشهور حاتم رشيد الشاذ جنسياً مع صديقه العسكري في الأمن المركزي عبد ربه الصعيدي.
- قصة المليونير الحاج محمد عزام صاحب الشركات الكبرى الذي بدأ حياته ماسحاً للأحذية في شارع سليمان باشا وزوجته الثانية سعاد جابر.

وثمة قصص أخرى تعمل على ربط الأحداث وتدفع بالرواية رويداً رويداً لنهايتها. ويشيع عنصر التشويق في العمل الروائي، فالرواية تكشف عن الصراع القائم بين طبقة المهمشين القادمين من الريف المصري وبين الطبقة البرجوازية في عمارة يعقوبيان، إذ ينتهي هذا الصراع إلى ذوبان الطبقة الوسطى؛ فقتل طه الشاذلي، وإجهاض سعاد جابر، واندحار بثينة السيد لتبيع جسدها مقابل جنيهات قليلة، ورباب التي تلبس ملابس داخلية مصنوعة من أكياس الاسمنت، وموت الطفل ابن عبد ربه، وانحراف عبد ربه الصعيدي.. كل هذه مؤشرات على الخراب الكبير الذي يعشعش في المجتمع القاهري، أدَّى ذلك الخراب إلى قيام طبقة برجوازية جديدة تقوم على الغش والرشوة والاتجار بالمخدرات وفساد مؤسسات الدولة الكبرى من رأس الهرم (الرجل الكبير) إلى مجلس الشعب وأجهزة الشرطة التي ترضى بالرشوة لكي تسدُّ حاجات عائلاتها، والتهرب من الضرائب، وقهر الطبقة الفقيرة، مما ولّد تيارات سياسية عنيفة، كما برز الاتجار بالدين عند ذوي النفوس الضعيفة مثل الشيخ السمان، وابسخرون الذي يسرق مال زكي بك ويخبئه خلف صورة العذراء رمز العفة والطهارة.

استشرى الفساد في المجتمع وعلى الصعد كلّها، لا يسلم منه أحد لا الغني ولا الفقير، فقد تركت بثينة العمل – عدة مرات- بسبب تحرشات الرجال أصحاب

العمل بها، وحين قالت لأمها عن ذلك، أجابت الأم "**أخوتك في حاجة إلى كل قرش من عملك والبنت الشاطرة تحافظ على نفسها وشغلها**"[5]. ولما علمت فيفي ابنة الكواء صديقة بثينة سبب ترك بثينة العمل قالت "**انت عبيطة يا بت**"[6]، أكدت لها فيفي أن 90% من أصحاب العمل يتحرشون بالعاملات لديهم، ومن ترفض تطرد من العمل. وقد عملت بثينة في محلات شنن عند الأستاذ طلال السوري، وقد أخذها- كغيرها- الأستاذ طلال إلى مخزن المحل في الشارع الآخر، واعتصرها من الخلف وقضي شهوته في حدود ثلاث دقائق فتلوث ثوبها، وعلمت بثينة أن الأمر لا يتجاوز ما يحدث في الأتوبيس عندما يلتصق بها الرجال، الفرق أنها تأخذ كل مرة عشرة جنيهات من طلال السوري. ولعل الكاتب يريد أن يقول: إن الفقر والعوز والحاجة هي التي تؤدي بالبنات إلى هذه المزالق عندما تتخلى الدولة عن دورها في توفير العمل للخريجين والشباب، فيقعون فريسة الاستغلال الجنسي. كان طلال السوري يدعوها إلى المخزن ثلاث مرات في الأسبوع على الأقل وقد وصلت بها الحالة إلى الاستكانة والخضوع، وعندما طلب منها طه الشاذلي أن تترك العمل عند طلال السوري؛ لأنه سيئ السمعة قالت: "**أمرك يا سيدي.. أعطني المائتين والخمسين جنيه الذين أكسبهم من طلال ولك عليّ ألا أكشف وجهي على أحد غيرك**" [7] ثم ألقت إليه بدبلته الفضية، تريد من ذلك أن تنهي علاقتها به للتخلص من الشعور الأليم بالإثم عندما ترى طه لأنها تحبه، ولا تريد أن تخدعه عندما تبيع جسدها بسبب الحاجة.

والفساد الاقتصادي لا يقل عن الفساد الاجتماعي والأخلاقي، فقد طالب كمال الفولي الحاج عزام أن يشترك الرجل الكبير (رجال السلطة العليا) بربع أرباح التوكيل الياباني الذي تبلغ أرباحه- كما يقول الفولي- أكثر من (300) ثلاثمئة مليون جنيه في

([5]) علاء الأسواني، عمارة يعقوبيان، مكتبة مدبولي، الطبعة التاسعة، القاهرة، 2006، ص62.

([6]) الرواية، ص63.

([7]) الرواية، ص68.

السنة، وكان لا بد أن يوافق الحاج عزام لأنه يعلم قوة الرجل الكبير وإن ظل يشعر بالظلم والحنق "**افتراء وبلطجة، هكذا قال لنفسه في حنق وقرر في نفسه أن يسعى لإيجاد حل يمنع الظلم**"[8]. ولكن نظراً إلى قوة الرجل الكبير وكمال الفولي وعصابته فقد أذلوا الحاج عزام ودفع كما يريدون دون تأخير، وقد هددوه بأن يدمروه؛ لأنهم يعرفون أن تجارته وسخة كما قال الفولي له. وعندما قابل الرجل الكبير قال له: "**احنا بنحميك من الضرائب والتأمينات والأمن الصناعي والرقابة الإدارية وألف جهة تقدر توقف مشروعك وتضيعك في لحظة.. وبعدين أنت بالذات إحمد ربنا إننا قبلنا نشتغل معك أصلاً لأن شغلك وسخ**"، ووقّع الحاج عزام العقد، ودفع ربع الأرباح لهم. هذا يظهر مدى الفساد المستشري في أجهزة الدولة، وإن الكثير من المسؤولين في أعلى المستويات في الدولة يعملون لصالحهم الشخصي، ولا يهتمون بمصالح الوطن والمواطن.

ومن الثيمات المهمة في الرواية إدانة الواقع الاقتصادي ، إذ يعيش الناس في ظروف اقتصادية في غاية الصعوبة من الفقر والبطالة وضيق ذات اليد؛ فالراوي يدير الحوار على لسان زكي بك الدسوقي وبثينة السيد:[9]

"- **انت بتكرهي مصر؟**

- **طبعاً... انا ما شفتش منها حاجة حلوة عشان أحبها.. لما تقف ساعتين على محطة الأتوبيس ولا تركب ثلاث مواصلات وتتبهدل كل يوم عشان ترجع بيتكم. لما بيتك يقع والحكومة تسيبك قاعد مع عيالك في خيمة في الشارع. لما الضابط يشتمك ويضربك لمجرد إنك راكب ميكروباس بالليل. لما تفضل تلف طول النهار على المحلات تدور على شغل وما تلاقيش.. لما تبقى طويل عريض ومتعلم وما فيش في جيبك ولا جنيه واحد وساعات ما فيش خالص... ساعتها بس حتعرف احنا**

([8]) المصدر السابق، ص209

([9]) الرواية ، ص193.

بنكره مصر ليه...". هذا هو واقع الحال: ظروف اقتصادية خانقة وضاغطة على نفس الإنسان، وفقر مدقع، وبطالة وازدحام في ظل شعارات الحكومة التي تجعل الصورة زاهية مشرقة. وهذا هو حال معظم الشعب، إنها إدانة واضحة وصريحة وصرخة مدوية في وجه النظام الحاكم الذي لا يعبأ بالناس ومعاناتهم.

وثمة صورة أخرى للوجه البشع للنظام، فقد مارست أجهزة الأمن أقسى أنواع التعذيب ضد المعتقلين، فقد كان سبب تحول طه الشاذلي إلى تنظيم الجهاد الذي يُقاتل النظام بسبب ما فعلوا به في المعتقل "**انهالت الضربات من كل اتجاه على طه ثم ألقوا به منكفئاً على الأرض..وبدأت أكثر من يد تكشف جلبابه وتنزع عنه ملابسه الداخلية وقاومهم بكل قوته لكنهم تكاثروا عليه وثبتوا جسده بأيديهم وأقدامهم وامتدت يدان غليظتان شدت عضلتي إليته وفرقتا بينهما وأحس بجسم صلب ينغرز في مؤخرته ويقطع أنسجته الداخلية فأخذ يصرخ. صرخ بأعلى صوته، صرخ حتى أحس بحنجرته تتمزق**" [10]إنه أبشع أساليب التعذيب. أن يهتكوا عرض الإنسان؛ إنها البشاعة بعينها. فقد دفعت أجهزة الأمن الكثير من الشباب للذهاب والانضمام إلى تيار الجهاد لقتال النظام بسبب الأعمال الرهيبة التي يمارسها النظام ضد المعتقلين في السجون، فقد كسروا نفسيات هؤلاء الشباب؛ إذ إن العذاب الجسدي سرعان ما يزول أمَّا التعذيب النفسي واستباحة كرامة الإنسان وتحطيم إرادته فهذا ما لا يشفى في الإنسان بل يولّد حقداً شديداً ضد أجهزة النظام القامعة له "**لو انني اعتقلت في إسرائيل لما فعل بي اليهود مثل ذلك**"[11] إنه اليأس الذي تسببه أجهزة الأمن للمعتقلين.

لم يقف الحال من الخراب عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى الممارسات الدينية التي يفترض أنها من المحصنات. فقد طلب الحاج عزام مراراً من زوجته سعاد أن تجهض نفسها، وقد أتى يوماً ومعه الشيخ السمان المعروف بسمعته الدينية المرموقة

([10]) الرواية ، ص216.

([11]) المصدر نفسه، ص236.

وقال لها: إن بعض الآراء الفقهية الموثوق بها أجازت الإجهاض أول شهرين من الحمل، ضحكت سعاد ساخرة وقالت بمرارة: "**دول لازم مشايخ أمريكان.. يا شيخ حرام عليك.. تروح من ربنا فين.. دفع لك كم عشان تيجي معه**"[12] إننا نلاحظ تغيّر مواقف بعض علماء الدين إزاء قضايا أساسية في الدين منها أن يحلل الحرام أو يحرّم الحلال، ونحن نرى فتوى الشيخ السمان في شرعية موقف الحكومة بوقوفها إلى جانب التحالف الغربي في حربه ضد العراق عام 1991م.

ولعل من الثيمات الكبرى والجريئة التي طرحتها الرواية قضية حاتم رشيد وما يمثله من حالة جنسية شاذة إذ كان لوطياً، وهذا كما نعلم من التابوات التي طرحها الكاتب بجرأة غير معهودة، ويعود السبب في انحراف حاتم رشيد إلى طفولته عندما انشغل عنه والده الدكتور حسن رشيد عميد كلية الحقوق في جامعة القاهرة ورجل القانون المشهور، كما انشغلت عنه أمه الفرنسية الأصل جانيت التي كانت تعمل طيلة اليوم في السفارة الفرنسية. فأحس حاتم بالوحدة المؤلمة، وولّد لديه شعوراً بالاغتراب والتشوش الذهني، فوجد الحب من الخادم إدريس الذي كان يعمل سفرجياً في بيتهم فأحبه وعوضه عن الحرمان بهذا النوع من الجنس المحرم. واللافت أن حاتم رشيد كان يبحث عن شذاذ لممارسة الجنس معهم على شاكلة إدريس؛ لأن الإنسان يبحث دائماً عن صورة العشيق الأول الذي أحبه.

ومن القضايا المهمة الفساد السياسي الذي يعيث في طبقات الدولة، فقد كان كمال الفولي رمز الفساد السياسي في البرلمان والحكومة، كان يدخل من يريد إلى البرلمان، وكان يخرج من يريد كل ذلك مقابل مبالغ كبيرة من المال يدفعها المرشح رشوة له ولأسياده "**الناس الساذجة فاهمين إننا بنزوّر الانتخابات... أبداً.. كل الحكاية إننا دارسين نفسية الشعب المصري كويس.. المصريين ربنا خلقهم في ظل حكومة.. لا يمكن لأي مصري يخالف حكومته.. فيه شعوب طبعها تثور وتتمرد إنما**

(12) المصدر نفسه، ص246.

المصري طول عمره بطاطي لأجل ياكل عيش.. الكلام ده مكتوب في التاريخ..الشعب المصري أسهل شعب ينحكم في الدنيا" [13] هذا حكم من رجل فاسد على شعب له تاريخ طويل وحضارة عظيمة؛ إنه تسخيف وتسطيح للأمور، فالشعب يُظلم ويُجلد ويجوع. كيف له أن يقاوم وهو يبحث عن لقمة العيش؛ إنه الفساد في هياكل السلطة؛ إنه جور السلطان، فقد طرح الكاتب هذه القضية على الرغم من حساسيتها وخطورتها وتجاوزها الخطوط الحمراء.

وثمة قضية أخرى تثيرها الرواية وهي تنامي الاتجاه الديني في الجامعات، فقد كان الشيخ شاكر إمام مسجد أنس بن مالك يدير تنظيم الجهاد، واستطاع أن يجند أعداداً كبيرة من الطلاب الفقراء والمسحوقين في الجامعات ضد السلطة، ونجح في موقفه ضد الحكومة عندما تبنت الحكومة الوقوف إلى جانب الأمريكان ضد العراق في حرب الخليج الأولى. وقد خاضت حركة الجهاد حرباً ضروساً ضد ضباط الشرطة والحكومة بدعوى أن الدولة ليست إسلامية، وهي تخضع للتشريعات الوضعية وتترك شريعة الله.

ويأتي الجواب على كل هذا الخراب والتدهور في الأوضاع ومرده إلى انعدام الديمقراطية "**لو فيه نظام ديمقراطي حقيقي في مصر تبقى قوة عظمى. مصر بلوتها الديكتاتورية والديكتاتورية نهايتها المحتومة فقر وفساد وفشل في كل المجالات**"[14]. هذا ما يقوله زكي بك الدسوقي الذي عاش وتربى في فرنسا، وترد عليه بثينة أنها تحب بلاد أوروبا مثل فرنسا وهولندا "**يقول لنا بلاد بره ما فيش ظلم ولا افترَ زي عندنا.. هناك كل واحد باخذ حقه.. علشان كده نفسي أسافر بره، أعيش**

([13]) الرواية ، ص120.

([14]) الرواية ، ص282.

هناك وأشتغل وأبقى محترمة بجد"[15] فقد انتقدت بثينة أوضاع البلد لا سيما عندما تنعدم الديمقراطية ولا يجد المواطن فرصة عمل.

البنية السردية:

تبنى الرواية على مستوى واحد من السرد؛ السرد بضمير الغائب العالم بكل بواطن الشخصيات الذي يديرها بخبرته ومعرفته هو فضلاً عن وجود استرجاع أحداث ومونولوجات داخلية، واستدخالات واقتباسات كثيرة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية لتأكيد مصداقية الحدث وواقعيته وديمومته، على الرغم من أن الرواية أخذت أيضاً من ملامح الرواية الحديثة مثل الإغراق في التفاصيل، وسيطرة الشبقية على الرواية بشكل واضح، ولم يحاول الكاتب استخدام ضمائر أخرى أو يسعى إلى تعدّد الرواة، بل كان الكاتب هو الرواي العليم، وهذا النوع من السرد هو من سمات الرواية الواقعية الكلاسيكية.

ومن تقنيات الرواية تداخل القصص، بل إن كل قصة تؤدي إلى قصة أخرى ولما كانت هذه القصص واقعية فإن الكاتب جعل لكل قصة شخصياتها وأبطالها، ولكن في النهاية هذه القصص كلّها تخدم الرواية عينها. فالسرد يذيب الأدوار بين الشخصيات والسارد، حتى كأنك أمام أدوار عديدة وهي في الواقع لا تعدو أن تكون عملاً واحداً متكاملاً.

يكشف الحوار بين الشخصيات عن تطور الحدث ووصوله إلى الذروة. قالت بثينة لطه عندما رفضته كلية الشرطة لأن أباه حارس عقار "**بص يا طه.. أنا صحيح أصغر منك بسنة لكني اشتغلت والشغل علمني، البلد دي مش بلدنا يا طه. دي بلد إلي معه فلوس. لو كان معك عشرين ألف جنيه ودفعتهم رشوة كان سألك عن شغلة**

([15]) المصدر نفسه، ص283.

أبوك..؟ اعمل فلوس يا طه تكسب كل حاجة أما لو فضلت فقير حتندهس دهـــس.."
[16]استخدم الكاتب علامات ترقيم مهمة تتمثل بالنقطة التي تدل علـــى انتهـــاء الجمـــل ومفصليتها وقطعيتها؛ أي إنَّه كلام قاطع نهائي فضلاً عن استخدام الجملة الاسمية في هذا المقطع الحواري ليدلَّ على ثبوت الحال وعدم تغيّره. وهذا الحوار يدلُّ على حالة اليأس التي وصلت إليها بثينة السيد؛ فالرشوة وعدم تقدير الكفاءة هما ديدن هذه البلـــد ولا أمل في الإصلاح. إنه اليأس الذي يمثل قطاعات كبيرة من أبناء الفقراء. كمـــا أن الكاتب في هذا الحوار لم يستخدم الأفعال التي تدلُّ على تغيّر الحـــدث أو تبدلـــه فـــي إشارة إلى دوام الحال واستمرار الأحوال كما هي عليه.

يكشف الحوار عن باطن الشخصيات، فإذا كان حاتم رشـــيد مثقفـــاً ورئيـــساً لتحرير مجلة لوكير الفرنسية، وعبده العسكري البسيط في الأمن المركـــزي؛ يـــدور الحوار بينهما بلغة بسيطة تعكس مستوى شخصية عبد ربه الصعيدي، عندما ألح حاتم رشيد على عبده للمبيت معه في الشقة:

" – دا رأيك النهائي؟!

- **أيوه**
- **يا عبده تعال معي الليلة والصبح نتفاهم**
- **لأ..**
- **من فضلك يا عبده**
- **لأ..**
- **طيب. ممكن نتفاهم بهدوء؟! بلاش طبعك الحامي ده"**[17].

([16]) الرواية، ص84-85.
([17]) الرواية، ص57.

نلاحظ أن اللغة العامية قد سيطرت على الحوار فعلى الرغم من مستوى حاتم الثقافي إلا أنه يتحدث بلغة حميمة مع عبد ربه لكي يسترضيه ويستدرجه إلى شقته.

يغرق الكاتب كثيراً في سرد التفاصيل إمعاناً بتشويق القارئ من جهة وربطه بأحداث القصة من جهة أخرى. وتلاحظ أن زكي بك يذكر بالتفصيل أنواع النساء وصفاتهن وكيفية الإقبال على ممارسة الجنس من مختلف الطبقات بشكل لافت للنظر لا يصدر إلا عن عالم في هذا الشأن[18]. وهذا الوصف لا يكتفي بالشكل الخارجي، بل نراه يتعداه إلى العالم الداخلي للشخصية، مما يضفي واقعية على شخوص أبطال الرواية، ويعطيها مصداقية أكثر، وهذه التفاصيل تنطبق على الشخصيات فيما تفعل أو تقول أو تلبس.

"كانت تسير بخطوات ضيقة بطيئة وهي مطرقة فتبدو وكأنها خجلى أو نادمة لسبب ما.. لاحظ أنها ترتدي الفستان الأحمر الضيق الذي يبرز تفاصيل جسدها ويظهر فتحته الواسعة صدرها المكتنز"[19].

كما يصف الكاتب بتفاصيل دقيقة لقاءات الغرام بين زكي بك وعشيقاته مثل رباب عاملة البار أو النبيلة كاملة ابنة القصر التي كان خالها الملك السابق والتي تدهن جسمها بالكريمات والمساحيق، أو البنت التي التقطها من الشارع وعندما أراد أن يغسلها بيديه وجد أن ملابسها الداخلية مصنوعة من أكياس الاسمنت، أو لقاءات الحاج عزام مع زوجته سعاد جابر بكل ما فيها من إثارة ونشوة.

كان الكاتب يغرق في تفاصيل المكان أيضاً مثل ممر بهلر وما فيه مروراً بشارع سليمان باشا المؤدي إلى شارع طلعت حرب، وأدق التفاصيل من محلات

([18]) انظر الرواية: الصفحات 12-15.

([19]) الرواية، ص33.

وبارات ومطاعم أو محلات شنن أو مطعم مكسيم أو كباريه كـــايرو وغيرهـــا مـــن التفاصيل التي تعكس واقعية الحدث ، وتجعل القارىء منجذباً للمكان .

وعلى الرغم من أن الرواية تعتمد الصراع نقطة مركزية للبنيـــة التركيبيـــة الدرامية، لكنها لا تجعل من هذه المركزية بنية واحدة بل سلسلة مـــن البنـــى، تقـــود واحدتها إلى الأخرى، وهذا من شأنه تصعيد هذا الصراع[20]. فنحن نلاحظ سلسلة من البنى داخل "**عمارة يعقوبيان**" مثل الصراع بين الحاج عزام وكمال الفـــولي والرجـــل الكبير والصراع بين طه الشاذلي وما يمثل من الأصولية والنظـــام الأمنـــي القـــامع، والصراع بين زكي بك وأخته دولت ذلك الصراع الذي دفع بزكي بك إلـــى الـــزواج ببثينة درءاً للفضيحة من جانب وللحب الذي نشأ بينهما على الرغم من فـــرق الـــسن الكبير بينهما من جانب آخر. فكل بنية سردية تؤجج الرواية وتعمل على دفعها للأمام من خلال التصعيد، أي إنَّ الروائي اعتمد مبدأ العقد العديدة والانفراجات فـــي روايـــة طويلة موفراً سلسلة من عناصر التشويق، ومتيحاً للقارئ ترقباً وانفراجاً بشكل حلقات مترابطة تضمن متابعة القارئ دون أن تجهده بانفعالات حادة.

جاءت لغة الرواية لغة عادية تناسب الواقع الاجتماعي الذي تنقلـــه أحـــداث الرواية، فكان السرد بلغة جميلة عذبة ولكنها خلت من الصور الشعرية؛ لأنهـــا تعبـــر عن صيحات الناس في الشارع، وتعيش الواقع كما هو، فلم نلحظ لغة حالمة تصويرية شعرية. أمَّا الحوار فقد عكس واقع الشخصيات بشكل حقيقي واقعي.. وقد كان الحوار يسير باللهجة العامية المصرية، وقد شابت لغة زكي بك الدسوقي ألفاظٌ فرنسية كثيـــرة نظراً إلى ثقافته الفرنسية حيث درس في جامعة السوربون في باريس مع حاتم رشـــيد الذي يتميّز بثقافته الفرنسية أيضاً.

([20]) محسن جاسم الموسوي، الرواية العربية: النشأة والتحول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص302.

وفي حوار بين والدة طه الشاذلي وبثينة وهما تنتظران عودته من امتحان كشف كلية الشرطة:

"-**أنا خايفة جداً يا بثينة.. طه خرج إلى الامتحان من الصبح ولسه ما عاد.. ربنا يستر يا بنتي**"[21]. فهي لغة بسيطة تعكس بساطة الشخصية التي تعبر عنها.

لقد أجاد الكاتب في وصف الشخصيات التي تمور بها الرواية، وقد أغرق في وصف المشاهد حتى كأنك تشاهد فيلماً، خاصة في مشاهد الغرام ووصف النساء والرجال على حد سواء. كانت سعاد عندما تمارس الحب مع زوجها الحاج عزام تحس بمشاعر مختلفة، وتشم رائحة عتيقة تخرج منه نظراً إلى تقدَّمه في السن "**تتحاشى النظر إلى بياض جلده العجوز المجعد.. تتقزز عندما تلحس جسده وكأنها تمسك بيديها سحلية أو ضفدعة لزجة مقرفة**" [22] إنه تصوير جديد ومثير وواقعي يثير النفس والإحساس بلغة معبرة جميلة كاشفة عن مستوى السرد.

كما جاءت لغة التذكّر والمنولوج أشبه ما تكون باللغة الشعرية الكاشفة للواقع، فإن كريستيفا تعد الرواية نصاً، أي إنَّها ممارسة سيميائية يمكن أن نقرأ فيها مسارات مركبة لعدة ملفوظات، وهي ترى أن الشعرية من حيث هي تسمية تشمل الشعر والنثر[23]. فقد كانت لغة الكاتب الوصفية لغة في منتهى الجمال والشفافية والعذوبة ولاسيما وصف الجوانب والمشاهد العاطفية للشخوص أو كشف عوالمهم

([21]) الرواية، ص69.

([22]) الرواية ، ص175.

([23]) جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1996، ص27.

الداخلية بكل ما فيها من تفاصيل عميقة، فالكاتب يغوص في أعماق الشخصيات ويسبر أغوارها.

ومن التقنيات المهمة في الرواية الاسترجاع، فعندما فقد حاتم رشيد صديقه عبد ربه وترك عمارة يعقوبيان، بدأ يتذكر ويسترجع الأحداث التي وقعت عندما كان طفلاً، فقد كان يعيش في عائلة ارستقراطية غنية، أبوه مشغول عنه في الجامعة والبحوث، وأمه الفرنسية مشغولة طوال اليوم بالعمل في السفارة الفرنسية، وهو وحيد تركوه للخدم ليعبثوا به، كان يتمنى أن يكونوا أمامه الآن ليحاسبهم على ما فعلوه به "**كم مرة قبلتني طوال حياتك، كم مرة جلست معي لأحدثك عن مشاكلي.. لقد عاملتني دائماً وكأنني تحفة أو لوحة نادرة تتذكرها فتتأملها قليلاً ثم تنساها**"[24].

فقد كان أبوه يعيش حياته على الطريقة الفرنسية، وهو مشغول كثيراً ولا وقت لديه لابنه الوحيد، فلم يجد حاتم عنده حباً أو حناناً، أما جانيت أمه فقد كانت فرنسية وهي تعمل في السفارة الفرنسية في القاهرة، يتذكرها حاتم بحقد شديد فهي سبب ما آلت إليه نفسه من وحدة وشذوذ وتحطيم نفسي، كان يتخيلها ليواجهها بحقيقتها "**لقد كنتِ مجرد ساقية في بار صغير في الحي اللاتيني، كنت فقيرة وغير متعلمة وكان زواجك من أبي نقلة اجتماعية كبيرة لم تكوني تحلمين بها لكنك ظللت بعد ثلاثين عاماً تحتقرين أبي وتبتزينه لأنه مصري وأنت فرنسية، وأظنك قد خنتِ أبي أكثر من مرة، بل أنا واثق من ذلك، كنت تهمسين بالتلفون مع سكرتير السفارة الفرنسية.. وتحتضنين السماعة بالساعات ويربد وجهك بالشهوة وترسليني بعيداً ألعب مع الخدم**"[25] إنه استرجاع للأحداث ومحاسبة الوالدين عما آلت إليه نفسه، فقد ماتا وتركاه وحيداً، إنه اعتراف بالخطأ الذي ارتكبه أبواه قبل سنين خلت.

([24]) الرواية، ص257.

([25]) الرواية ، ص257.

كما تسعى سعاد إلى الاسترجاع عندما تتحدث مع الحاج عزام قبل الـزواج "**أنا أتزوجك وحدك من غير أولاد.. اتفقنا؟ تسترجع وجهه البارد القاسي فـي تلـك اللحظة وتكرهه من صميم قلبها**"[26]. وهي تقنية تعمل على دفـع الأحـداث وربـط الماضي بالحاضر، وهي من التقنيات الحديثة في البنية السردية، وعندما كان الحـاج عزام في فراش سعاد كانت تتذكر ابنها الذي تركته في الإسكندرية "**وفي الليل كثيـراً ما تتحسس موقعه بجوارها على الفراش وتبكي بحرقة، وذلك الصباح عندما مـرت أمام مدرسة ابتدائية ورأت الأطفال تذكرته وبكـت واعتـصرها الحـزن والـشوق أياماً**"[27].

ويسترجع طه الشاذلي دائماً ما حدث معه في كلية الشرطة بعد أن رفـضوه "**قال لنفسه لا يمكن أن يهينوه بهذه الطريقة ويسكت.. وشيئاً فـشيئاً أخـذ يتخيـل مشاهد ثأرية خرافية.. كان من عادته أن يتخيل مشاهد كهذه عندما يتعـرض إلـى مواقف صعبة.. وظل الشعور بالإهانة يسحقه سحقاً..**"[28] . هذا الصراع هو الذي دفع بطه إلى التحول والتوجه نحو التطرف الديني والعمل مع الجماعات الجهاديـة ضـد الحكومة، فكل مشكلة طه أن والده يعمل حارساً للعقار، وهذا سبب يمنع دخوله كليـة الشرطة على الرغم من كل المواصفات العالية والعلامات 89% وقوة الشخصية التي يمتلكها.

وكذلك يستخدم الكاتب تقنية المنولوج فعندما ذهب الحاج عزام لمقابلة الرجل الكبير، تركوه في غرفة استقبال كبيرة بعد أن قاموا بإجراءات أمنية كثيرة وأحس وهو جالس بالإهانة "**إنهم يهينوني وفي نفس الوقت ينهبون أموالي، يريدون أن يأخـذوا**

([26]) المصدر نفسه، ص179.

([27]) المصدر نفسه، ص178.

([28]) الرواية ، ص87.

ربع الأرباح على الجاهز ولا ينطقون بكلمة شكر واحدة بلطجة وقلة أدب"[29] إنه حديث النفس للنفس أو ما يسمى بالمنولوج الداخلي، يعترف لنفسه بما لا يستطيع أن يقوله أمامهم فيحس بالراحة والطمأنينة، هكذا تتداعى عليه الأفكار وتزاح دونما ترتيب؛ فهو يعيش الماضي والحاضر في آن واحد، تتداخل مستويات السرد لتأخذ كل بنية سردية بأخرى لتدفع السرد إلى الأمام.

الشخوص والمكان والزمان:

يقول الروائي جمال الغيطاني الذي نشر هذه الرواية "**عمارة يعقوبيان**" مسلسلة في جريدة "أخبار الأدب" التي يرأس تحريرها إن "**عمارة يعقوبيان**" تصور العديد من الشخصيات التي يمكن أن نتعرف أصول بعضها في الواقع، وهي شخصيات قوية مؤثرة فاعلة في بث الفساد وتخريب الاقتصاد والمجتمع والروح[30].

إن "**عمارة يعقوبيان**" من خلال تقديم العدد الكبير من الشخصيات تعكس مدى الفساد والخراب الذي يُعشِّشُ في المجتمع، وتقدَّم لنا العالم السري للجماعات المتطرفة، وعالم الجنس في وسط البلد الذي يطارد الناس الفقراء والضعفاء. فمعظم شخصيات الرواية في هذا المستوى من تأويل الرواية تظهر محكومة بالتحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعقائدية الكبيرة التي تدور حولها الرواية؛ فنرى التحولات التي أصابت الشخصيات: الحاج عزام/ ماسح أحذية/ عضو مجلس شعب، بثينة/ بريئة طاهرة/ رخيصة، عبده/ فقدان الولد/ الهروب. طه الشاذلي/ شاب وديع/ أصولي متشدد، رباب / فقيرة/ غنى، زكي بك/ البوهيمية/ الشرعية والاستقرار.

([29]) المصدر نفسه، ص 322.

([30]) جمال الغيطاني، جريدة أخبار الأدب، القاهرة، 10 فبراير، العدد 27، 2002.

تحفل الرواية بعدد كبير من الشخصيات الرئيسية النامية والمسطحة وكذلك الشخصيات الثانوية، وسوف أركز على عدد من الشخصيات الرئيسية النامية في الرواية.

زكي بك الدسوقي الابن الأصغر لعبد العال باشا الدسوقي القطب الوفدي المعروف الذي تولى الوزارة أكثر من مرة، وكان من كبار الأثرياء قبل الثورة، وقد تعلم زكي بك الهندسة في جامعة باريس، وكان متوقعاً له بطبيعة الحال أن يؤدي دوراً سياسياً بارزاً في مصر بواسطة نفوذ أبيه. لكن الثورة قامت فجأة فتغيّر الحال: تم القبض على عبد العال باشا وتقديمه لمحكمة الثورة ولم تثبت عليه تهمة الفساد السياسي.. انتُزعت أملاكه لتوزع على الفلاحين. ولم يلبث الباشا أن مات متأثراً بما جرى. وتركت نكبة الأب أثرها في الابن، فلم يلبث مكتبه الهندسي الذي افتتحه في "**عمارة يعقوبيان**" أن باء بالفشل، وتحول مكتبه إلى مكان يقضي فيه زكي بك فراغه اليومي من لقاء الأصدقاء إلى وكر لمطارحة الحب مع النساء[31]. وهو من الشخصيات الرئيسية في الرواية والمحببة من قبل جميع النساء لما عنده من روح الفكاهة والحب للجميع. إن الفشل الذي لقيه زكي بك لا يعود إلى قيام الثورة فحسب، وإنما يرجع في الأساس إلى فتور همته وتهافته على اللذة. "**والحق أن حياته التي امتدت خمسة وستين عاماً تتمحور غالباً حول كلمة واحدة: المرأة.. والمرأة بالنسبة إليه ليست مجرد شهوة تشتعل ويتم إشباعها، وإنما هي عالم كامل من الغواية التي تتجدد في صور لا نهائية لتنوعها الفتان**"[32] وأكثر من ذلك، فقد أحب زكي بك النساء، وعرف منهن الأنواع كلّها بدءاً بالنبيلة كاملة بنت خال الملك السابق التي تعلم معها آداب المخادع الملكية وطقوسها، وانتهاءً بساقطات الشوارع "**ضاجع زكي بك نساء من كل الطبقات... راقصات شرقيات وأجنبيات وسيدات مجتمع وزوجات**

([31]) الرواية، ص11-12.

([32]) الرواية ، ص12.

لرجال أفاضل مرموقين وتلميذات جامعة وثانوي بل وساقطات وفلاحات وخادمات بيوت.. وكثيراً ما يقارن ضاحكاً بين مخدع النبيلة كاملة المحكوم بالبروتوكول وتلك المتسولة التي التقطها ذات ليلة، وعندما دخل بها إلى الحمام ليغسل جسدها بنفسه اكتشف أنها لفقرها قد صنعت ملابسها الداخلية من أكياس الاسمنت الفارغة"[33].

بثينة السيد بنت من عائلة كبيرة تتكون من ثلاث بنات وولد واحد اسمه مصطفى هو الابن الأصغر، ووالدها محمد السيد القادم من الريف الذي يعمل مساعد طباخ في نادي السيارات مات كغيره من كثير الريفيين بسبب البلهارسيا، بعد موت أبيها عملت بثينة على رعاية أسرتها التي كانت تعاني الفقر، وعملت سكرتيرة في مكتب محام ومساعدة كوافيرة حريمي وممرضة مبتدئة[34]. وقد تركت بثينة هذه الأعمال كلّها للسبب نفسه، وهو تحرش صاحب العمل بها وبغيرها من البنات العاملات، كانت بثينة تملك جسداً جميلاً ومثيراً، وعينين عسليتين واسعتين وشفتين مكتنزتين وصدرها عامر ومؤخرتها مستديرة رجراجة وردفين طريين، كل هذا الجمال جعلها مثار إعجاب كل من يراها، وقد كان حلمها أن تتزوج طه الشاذلي وتغادر مجتمع السطح في "**عمارة يعقوبيان**". إنها فتاة بريئة وطيبة وجميلة وبسيطة.

ومن الشخصيات الرئيسية حاتم رشيد، وهو شخصية مثيرة للجدل، فقد جسّد الكاتب هذه الشخصية على الرغم من صعوبة تقبل المجتمع لمثيلاتها نظراً إلى رفضه لها اجتماعياً وأخلاقياً ودينياً، فهو رجل شاذ جنسياً يمارس اللواط مع شذاذ الليل.

حاتم رشيد صحفي معروف ورئيس تحرير جريدة لوكير التي تصدر باللغة الفرنسية في القاهرة، وهو ارستقراطي عريق، والدته فرنسية، ووالده الدكتور حسن رشيد القانوني الشهير وعميد كلية الحقوق في الجامعة، وحاتم ذو ملامح فرنسية دقيقة

([33]) المصدر السابق، ص13

([34]) المصدر نفسه، ص61.

أشبه ما يكون بنجم سينمائي متألق[35]. وقد كان حاتم شاذاً محافظاً وليس مبتذلاً كما يفعل الآخرون.

لعل قضية الجنس تشكل مفصلاً مهماً في الرواية، فقد قدَّم الكاتب نموذجين متباينين من الشبقية: الأول يتمثل بزكي بك الدسوقي الذي كان يعبّر عن الجنس من خلال رفضه للواقع وما حلّ به نتيجة ثورة 1952، ونظراً للتحولات السياسية والخراب السياسي والاقتصادي والفساد الأخلاقي، كل هذا أراد أن يهرب منه باللجوء إلى الجنس والشرب مع بنات الطبقات كلّها من ابنة القصور إلى فتيات الشوارع، إلى الجنس الراقي الذي يمارسه زكي بك مع بثينة الممزوج بالحنان والحب لينتهي بالزواج على الرغم من فارق السن الكبير بينهما.

إن قضية الجنس عند حاتم رشيد ناشئة عن مرض نفسي يطبق على نفسيته، يتمثل ذلك بقلة الحنان وفقدان الأمان وانعدام الاهتمام والشعور بالوحدة ولذلك لجأ إلى الخدم ثم أولاد البارات والشوارع من الشذاذ والمدمنين؛ إنه هرب من الالتزام والانكسار الذي عاشه حاتم رشيد مذ كان صغيراً. الفحولة المأجورة التي كان يمتلكها عبد ربه العسكري في الأمن المركزي لقاء سد رمق أسرته الفقيرة، أو الأحلام التي كانت تراود الحاج عزام فيرى في المنام ما يرى من نساء حتى دفعته تلك الحاجة من الشبقية إلى الزواج وهو في الستين من العمر، وقصة طلال السوري بعقده النفسية عندما كان يدعو الفتيات في محل الملابس إلى المخزن لإفراغ شهواته دون أن يمارس الجنس فعلاً؛ إنها حالة نقص يعيشها طلال السوري صاحب محل بيع الملابس، فهو يبحث عن نزوات عابرة وكفى. إنها مجموعة من مركبات النقص التي تعانيها الشخصيات، فتعيش كل واحدة منها ضمن أزمة نفسية خاصة، وتغدو بذلك معظم شخصيات الرواية مأزومة ومهزومة.

([35]) الرواية، ص55.

إن الفقر والجوع هما اللذان دفعا عبد ربه العسكري في الأمن المركزي إلى ممارسة الرذيلة مع حاتم رشيد لقاء غرفة استأجرها له على سطح "**عمارة يعقوبيان**" والكشك الذي استأجره له. ولما توفي ابن عبد ربه نتيجة مرض مفاجئ قرر عبده قطع علاقته بحاتم رشيد، لكن سرعان ما وجده حاتم، وطلب إليه المبيت معه ليلة واحدة مقابل عمل وجده له في المركز الثقافي الفرنسي كحارس، وأعطاه شيكاً بمبلغ ألف جنيه ليسدد ديونه، وعندما فعل عبده تلك الليلة على أنها الأخيرة. أراد الخروج فمنعه حاتم ودار بينهما عراك ضرب فيه عبده حاتماً فصاح به "**بتضرب سيدك يا خدام يا ابن الكلب.. وحياة أمك ولا فيه شغل ولا فلوس.. أنا الصبح اتصل بالبنك وأوقف صرف الشيك.. ابقى بله واشرب ميته..**"[36] ، انقض عبده بعد ذلك على حاتم وأخذ يضرب رأسه بالجدار بكل قوة حتى أحس بدمه ينبثق حاراً لزجاً على يديه. هكذا كانت نهاية حاتم رشيد الموت قتلاً على يدي عبد ربه الصعيدي الذي دمرت حياته تماماً.

الحاج محمد عزام المليونير ذو الستين عاماً من الشخصيات الرئيسية في الرواية يملك ثروة كبيرة محلين كبيرين للملابس، ومعرضاً لبيع السيارات وعدة محلات لقطع الغيار بخلاف عقارات كثيرة مملوكة له، وعمارات شاهقة في وسط البلد. ولكن المسنين في شارع سليمان باشا يذكرونه قبل عشرين سنة وهو جالس على الأرض بالجلباب والصديري وأمامه صندوق خشبي صغير حيث بدأ بتلميع الأحذية، وقيل إنه عمل في الخليج، والناس لا يصدقونه ويشيعون أنه حوكم وسجن لاتجاره بالمخدرات[37]. وقبل سنتين انضم إلى الحزب القومي، وأصبح واحداً من أشهر رجال وسط البلد.

([36]) الرواية، ص334

([37]) المصدر نفسه، ص 71.

والحاج عزام يؤمن بأن سرّ نجاحه وزيادة ثروته يعودان إلى توفيق الله، ولم يعرف عن الحاج عزام أنه يزني أو يشرب الكحول، ولكنه يدخن الحشيش؛ لأنها غير محرمة كما يقول بعض رجال الدين، وهو كثير الصدقات على الفقراء والمحتاجين ودور العبادة والمشايخ ويساعد الأرامل والأيتام، له ثلاثة أولاد أحدهما قاض ويعمل وكيل النائب العام، والآخر يعمل معه في التجارة، ولديه زوجة واحدة الحاجة صالحة، لكنه سرعان ما تزوج ثانية في السر عندما بدأ يستحلم كثيراً بالنساء، وقد فعل ذلك تجنباً للوقوع بالإثم.

ومن الشخصيات الرئيسية في الرواية الشاب طه الشاذلي ابن بواب العمارة، وهو شاب طموح قوي الشخصية كان يحلم بأن يدخل كلية الشرطة بعد أن حصل في الثانوية العامة على معدل عالٍ 89% ليصبح ضابط شرطة يشق طريقه ويترك مجتمع سطح "**عمارة يعقوبيان**" ويعيش مع بثينة السيد حبيبته المنتظرة. ولكنه يقع فريسة التطرف الديني عندما رفضته لجنة المقابلة في كلية الشرطة؛ لأنه ابن حارس عقار؛ ولأن كلية الشرطة لا يدخلها إلا أبناء الطبقة الراقية، فأولاد البوابين وأمثالهم لو أخذوا أية سلطة سوف يستعملونها في تعويض مركبات النقص والعقد النفسية التي أصابتهم في نشأتهم الأولى[38]. كما كان يقتصر دخول الكلية على أولاد الأغنياء، أو الذين يدفعون رشاوى تقدر بعشرين ألف جنيه.

أمَّا كمال الفولي فهو من الشخصيات المحورية في الرواية، وقد بدأ حياته فقيراً من قرية في المنوفية، درس الحقوق ثم انخرط في العمل السياسي وتقلب في الأحزاب والتيارات السياسية كلّها، وعمل في الحزب الاشتراكي ثم الحزب القومي[39]. شخصية وصولية كثير التقلب حسب المصالح وحسب ما تريده السلطة، وعرف عنه قوته ونفوذه مع رجال السلطة والحكومة، دخل البرلمان وبقي فيه ثلاثين سنة، واتسم

([38]) الرواية ، ص29.

([39]) المصدر نفسه، ص114-115.

عمله بالقوة والسلطوية. ونستطيع أن نجد شخصية مثل كمال الفولي في أي مجتمع تنمو فيه هذه الشخصيات التي تنهض بالتملق والرشوة والوقوف مع التيار القوي على الساحة السياسية، وقد استطاع أن يدخل الحاج محمد عزام البرلمان مقابل رشوة بلغت مليون جنيه، فهو شخصية إشكالية تثير الجدل وتبعث على الخوف، وهو يمثل الفساد السياسي الموجود في المجتمع والدولة.

أمَّا سعاد جابر فكانت امرأة مطلقة لها ولد واحد؛ امرأة بيضاء ممتلئة وجميلة ومحجبة عيناها سوداوان ساحرتان، كانت متزوجة من نقاش سافر إلى العراق وانقطعت أخباره وحصلت على الطلاق لتعيش برعاية أخيها حميدو[40]. وقد أعجبت الحاج عزام عندما رآها واشترط عليها أن تترك ولدها في الإسكندرية، وأن لا تنجب أطفالاً، وعندما حملت منه بعد ذلك أرسل إليها من يجهضها ثم طلقها، شخصيتها عميقة تحمل في نفسها أسىً وظلماً وانكساراً سرعان ما انكشفت شخصيتها عندما واجهت الحاج عزام والشيخ السمان.

ومن الشخصيات الأخرى الكثيرة في الرواية التي تتقاطع خطوطها الدرامية في أحداث الرواية أبسخرون وملاك وعلي السواق وفيفي ابنة المكوجي وهم جميعاً من سكان سطح "**عمارة يعقوبيان**" ورضوى أبو عاشور زوجة طه الشاذلي في معسكرات تدريب رجال الجهاد في الجبل. هذا المجتمع المهمش الجديد الذي نشأ بعد الثورة بكل ما فيه من فقر وبراءة، تدفع أفراده نحو عوالم مختلفة ومصائر ليس لهم قدرة على التخلص منها. فقد كان التطرف الديني ظاهرة جديدة بدأت في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات واستمرت بشكل واضح فيما بعد، فقد كانت وجهة نظر الجماعات الإسلامية بالنظام أنه كافر، وأن ضباط أمن الدولة كفار ومجرمون مثل العقيد صالح رشوان الذي هتك عرض طه الشاذلي وعذبه وأذله، وكما قال محجوب هو نفسه "مجرم وكافر وسفاح، وكان يتلذذ بالإشراف على تعذيب الإسلاميين، وهو

([40]) الرواية، ص76.

المسؤول المباشر عن مقتل إخوة كثيرين في المعتقل: الأخ حسن الشرباصي أمير الفيوم، والأخ الدكتور محمد رافع المتحدث باسم الجماعة، وكان يتباهى بقتلهما أمام المعتقلين في سجن العقرب[41]. فقد قام العقيد صالح بقتل كثير من المعتقلين وتعذيبهم، وكان لابد للجماعة من اغتياله، فقام طه الشاذلي بقتله في منطقة فيصل بالهرم بالاشتراك مع زملائه من الجماعة.

المكان من المكونات الأساسية التي تبنى عليها المغامرة المحكية، فهو المجال الحيوي لحركة الشخوص، والأرضية التي تجري عليها الأحداث والعمود الفقري الذي يشد أجزاء الرواية، ولذلك فإن تعيينه يشكل البؤرة الضرورية التي تدعم الحكي[42]. ولذلك فقد جاء احتفال الكاتب بالرواية من العنوان "**عمارة يعقوبيان**" إذ اتخذ من المكان بؤرة للحدث ووعاءً للبناء السردي فيها دون مشاحة. فالعمارة هي التي تجمع الشخصيات كلّها وتشيد عالماً تتعايش فيه الشخوص كافةً داخل العمارة / الطبقة الغنية، وسطح العمارة/ الطبقة المهمشة والمسحوقة.

إن حركة الشخوص في المكان تتطلب أكثر من مكان، ولكن السعة في المكان والزمان قد توقع الرواية في تشتت وركود يلغي المصداقية من جانب والألفة بين القارئ والنص من جانب آخر[43]. ولكن الكاتب هنا لم يتوسع كثيراً بل كانت "**عمارة يعقوبيان**" المسرح الرئيسي للرواية وحركة الشخوص، وأمامه ممر بهلر ثم شارع سليمان باشا أو مطعم مكسيم أو محلات شنن وكلها أماكن تتمحور حول "عمارة يعقوبيان" في وسط القاهرة.

([41]) المصدر نفسه، ص340.

([42]) محمد عبد الله القواسمة، المكان وعلاقته بالناس في رواية أبناء القلعة، مجلة أفكار، العدد 244، وزارة الثقافة، عمان، شباط، 2009، ص93.

([43]) محسن جاسم الموسوي، الرواية العربية: النشأة والتحول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص305.

فالمكان "عمارة يعقوبيان" مرتبط بالإنسان الذي يصنع هذه الأحداث ضمن شبكة علاقات معقدة. إن المكان نفسه لا يمكنه أن يقوم بمعزل عن تجربة الإنسان أو خارج الحدود التي رسمها له[44]. فعلاقة الشخوص مع المكان علاقة إيجابية تؤوي الكثير من المهمشين على سطح العمارة، ويمارس الرجال والنساء الجنس، ويقضي الرجال ليالي الخميس وأمسياتهم على السطح، ويدرج الأطفال فيه ويكون ملعباً لهم، ويلتقي العشاق على السطح (طه وبثينة)، ويمارس زكي بك الدسوقي كل نزواته الجنسية داخل العمارة، وكذلك الأمر مع حاتم رشيد عندما يلتقي الشاذين، إنها علاقة جاذبة وإيجابية، تربط الشخوص بالمكان أيما ارتباط.

جاءت "**عمارة يعقوبيان**" بطوابقها العشرة وبسطحها الواسع ومحلاتها التجارية ومكاتبها "**خشبة مسرح واسعة تفرض على الشخصيات من خلالها أهواءها، وهواجسها، ونوازعها، وعواطفها، وآمالها وآلامها**"[45]. وهذا ما نراه من تقنيات السرد، إذ تكشف الشخصيات عن أهوائها، ودواخلها عبر ثنائيات عديدة: حاتم رشيد/ عبد ربه الصعيدي، طه/ بثنية، زكي بك/ رباب، زكي بك/ بثينة، زكي بك/ دولت، الحاج عزام/ سعاد. ولذلك فإن المكان يتجاوز إلى الفضاء، فهو يشمل الأمكنة من ممر بهلر وشارع طلعت حرب، وميدان فيصل، والتوفيقية، وشارع سليمان باشا، ومعسكرات التنظيمات السرية، وعمارة يعقوبيان؛ فالفضاء في الرواية أوسع وأشمل من المكان المحدود؛ إنه مجموع من الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في سيرورة الحكي، ومن ثمَّ فإن الفضاء المكاني ليس مجرد أبعاد هندسية، ولا يمكن بأي حال انفصالها عن البنية الزمانية؛ فالمكان مرتبط بوعي الشخصية وفعلها فيه، إذ

([44]) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء والزمن والشخصية، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1990، ص89.

([45]) عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، عالم المعرفة، العدد 240، 1988، ص158.

كيف نفهم نفسية بثينة السيد وهي تذهب إلى مستودع محلات شنن للقاء طلال السوري، الذي يفرغ طاقاته المكبوتة على ملابس بثينة في خمس دقائق، ثم تغسل ملابسها وتبدأ بالبكاء، إنه المكان الذي يضيق ويضيق ويصيح خانقاً نظراً إلى فعل الإنسان الذي يقلل من شأن الإنسان.

إن شغف الكاتب بالتفاصيل ومهارته التصويرية جعلاه يقود القارئ إلى الأماكن كلّها بسينمية رائعة جعلت عمله مناسباً للإخراج المرئي، وهذا ما حدث فعلاً، إذ سرعان ما أعدت الرواية لتكون عملاً مرئياً ناجحاً بامتياز.

اعتمد الكاتب الزمن الصاعد في الرواية، فقد بدأ بعملية السرد وبناء الشخوص وصولاً إلى لحظات التأزم في العديد من القصص التي احتوتها الرواية ولم يلجأ إلى الزمن الهابط أو المدوّر أي إنَّه لم يعمل بتقنية الروايات الحديثة في بناء الزمن إلا أنه استفاد من التداعي والمنولوج وتقنية الاسترجاع Flash Back ليشكل في حركة الزمن في الرواية، فقد كان الزمن مكشوفاً منذ البداية لتغطي المرحلة بين ثورة يوليو 1952 وحتى عام 2002، أي إنَّها تبدأ بثورة الرئيس جمال عبد الناصر عام 1952 وتمتد حرب الخليج الثانية "وفي عام 1952 قامت الثورة فتغيّر كل شيء" ثم جاء الانفتاح في السبعينيات وبدأ الأثرياء في الخروج من وسط البلد إلى المهندسين ومدينة نصر وباع بعضهم شققهم في "**عمارة يعقوبيان**"[46]. أي إنَّها امتدت أكثر من خمسين سنة شكلت فيها تغيّراً واضحاً في الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمجتمع المصري. فقد استطاع الكاتب أن ينسج شبكة علاقات حيث الفعل المضارع المستمر يطابق بين زمن القص لراوٍ ساخر مع زمن الحكايات التي يرويها، حيث يتوغل الماضي في الحاضر ويغلق أبواب المستقبل[47].

([46]) الرواية، ص22-232.

([47]) فريدة النقاش، عمارة يعقوبيان، جريدة الأهالي، القاهرة، 17 ابريل ، العدد 1072، 2002، ص15.

ولذلك، تبدأ الرواية بزكي بك الدسوقي وهو يسير في ممـــر بهلـــر باتجـــاه "**عمارة يعقوبيان**" حيث مكتبه هناك، وتنتهي الرواية بزكي بك الدسوقي وهو يتـــزوج بثينة السيد في مطعم مكسيم الذي تملكه السيدة كريستين اليونانية، وبذلك ينغلق النص الدائري.

وأخيراً، فقد قدَّم علاء الأسواني روايته "**عمارة يعقوبيان**" بتقنية عالية، أعادنا فيها من جديد إلى تيار الواقعية التسجيلية الذي تراجع كثيراً في ظل الحداثة وما بعـــد الحداثة، واستطاع أن يكشف عالماً حقيقياً في وسط القاهرة (مصر) يشوهه الفساد على الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية كلّها، عبر خمـــسة عقـــود مـــن الزمن وهي نبوءة ما زالت تعيش حتى اللحظة، فلم يتغيّر الحال بل ازداد سوءاً. وقـــد قدَّم الأسواني عدداً كبيراً من الشخوص ليمثلوا طبقات الشعب مهمشيه وأغنيائه كافـــة دون وجل أو خوف.

المراجع

1. الأسواني، علاء، عمارة يعقوبيان، مكتبة مدبولي، الطبعة التاسعة، القاهرة، 2006.
2. أمين، جلال، عمارة يعقوبيان، رواية جديدة بديعة، مجلة الهلال، العدد 47، القاهرة، 2002.
3. بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، الفضاء والزمن والشخصية، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1990، ص89.
4. الغيطاني، جمال، جريدة أخبار الأدب، الأحد10فبراير،العدد 27، القاهرة، 2002.
5. القواسمة، محمد عبدالله ، المكان وعلاقته بالناس في رواية أبناء القلعة، مجلة أفكار، العدد 244، وزارة الثقافة، عمان، شباط، 2009، ص93.
6. كريستيفا، جوليا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1996، ص27.
7. مات، روبير، رواية الأصول وأصول الرواية، ترجمة وجيه سعد، ص64.
8. مرتاض، عبد الملك، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، عالم المعرفة، العدد 240، 1988، ص158.
9. منيف، عبد الرحمن، مجلة المعرفة، شباط، 1979.
10. الموسوي، محسن جاسم، الرواية العربية: النشأة والتحول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص302
11. النقاش، فريدة، عمارة يعقوبيان، جريدة الأهالي،17 أبريل ،العدد1072، القاهرة، 2002 ، ص15.

اتاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2009/12/29.